

السكون المتأمل

يعيش الإنسان حالات مختلفة من السكون وشروود الذهن، والهروب الواعي أحياناً في الزمان بعيداً عن المكان، أو الهروب غير الواعي بعيداً عن الزمان والمكان معاً في حالة ضياع في اللاشيء. حين يهرب إنسان في الزمان بعيداً عن المكان، يكون هروبه في الحقيقة هو هروب من الواقع إلى الماضي أو إلى المستقبل، لذلك نلاحظ ملامح الجدية على وجهه، والشروود في عينيه، وكأنه ينظر إلى قمة جبل يكتنفها ضباب كثيف يحاول اختراقه ورؤية ما يخفيه من معجزات الطبيعة وجمالياتها والمخلوقات التي تتجول في فضاءاتها بحرية. أما الهروب إلى المستقبل فيجعل الإنسان يتخيل أنه يرى غزاً جميلاً يقف وحيداً فوق قمة جبل يزهو مختالاً بقامته وعيونه الواسعة التي تتقد ذكاء وحب استطلاع يتجاوز ما يعرفه البشر. ولما كان الغزال أكثر حساسية من الإنسان بكثير، فإنه يكون دوماً أكثر قدرة على استطلاع معالم المستقبل وقراءة ملامحه، طبعاً إلا إذا غدر به إنسان أو حيوان مفترس، فالغدر من صفات الأقوياء والاستسلام للغدر من صفات الضعفاء.

لكن حين يشرد ذهن إنسان محاولاً التجول في متحف الذكريات الجميلة، فإننا نلاحظ أنه يبتسم بلا سبب وكأنه يستقبل صديقاً قديماً يراه بعد فراق طال. وما أن يعانقه حتى يسترخي تماماً كأنه يغرق في حضن حبيبة يستعيد على صدرها أيام طفولته الأولى... طفولة علمته متعة الحياة لأول مرة، وممارسة العشق لأول مرة، وتذوق آلام الشوق والفراق لأول مرة. إن محاولة استكشاف كنوز الحياة والطبيعة هي محاولات لاختبار مدى قدرة الإنسان على استرجاع ما فات وعز من ذكريات، ولما عاشته تلك الذكريات من شقاوة وانجازات ومغامرات عبثية، من نشوة الفرح وآلام الحزن.

حين يضحك إنسان وحده ضحكة كسولة لا يشاركه فيها أحد من قريب أو من بعيد، يكون الإنسان في حقيقة الأمر يسخر من الواقع، يستهزئ به بعيداً عن عيون الآخرين. لكنه استهزاء يعكس تحسراً على ما فات من فرص، وما ضاع من عمر دون انجاز يذكر، نادماً على عدم قيامه بما كان عليه أن يقوم به، وكان قادراً على القيام به والتمتع بحياته بشكل أفضل. أما حين يغرق إنسان في بحر من السكون والهدوء التام، كأنه يعيش حالة ضياع، فإنه يكون في الواقع قد دخل حالة من الوعي الداخلي، يعيش مع ضميره، يجادله ويراجع معه أحداث عمره، ويعاتبه على انفراد، محاولاً معرفة ما لديه من كنوز ماضوية يعلوها الصدا، وذلك بحثاً عن عبر يمكن استخدامها لتقويم مسيرة الحاضر واستطلاع آفاق المستقبل.